صبحي الصالح *

الماء وحضارة الإنسان

في التصور الإسلامي

(الصفحات ١٨١- ١٩٢)

ملخّص

النظرة العلمية إلى الماء في التصور الإسلامي لم تنحصر في مادته الأولية للخلق والتكوين، بل تناولته في جميع المجالات بصورة تختلف عن تلك التصورات والظنون. فهي أقرب إلى التصور العلمي الرصين الذي يتجنب افتراضات المتفلسفين وغيبيات الميتافيزيقيين ويرفض ميثولوجيا الأسطوريين، ويتضمن تحريك الحوافز النفسية لمواصلة الإنتاج والعطاء عن طريق إحياء الموات.

في عصر العلم الممتدّ إلى الغد، لم يهتد حتى الآن العلماء إلى رأي نهائي حاسم حول بدء الخلق، و إنما هي افتراضات وظنون انتهت إليهم جميعًا من أقوال من سبق، وحسبهم اليوم جميعًا أن يورثوها من سوف يلحق..

بيد أن الباحث الإسلامي الذي لا يأخذ بالظن، ولا يرجم بالغيب، يستخلص بكثير من الاطمئنان أن الماء هو مادة الحياة الأولية، لجميع الكائنات والأحياء، كلّما رتل في القرآن: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [1]. بل يوشك، إذا ما فكر في هذه الآية مليًا أن يؤكّد من خلالها ويشهد، أنه ما كان للإنسان

* - عالم ومفكر لبناني فقيد.

أن يولد، ولالجمهرة الكائنات أن توجد،ولاللحياة أن تستمر،ولاللحضارة أن تزدهر، لو غاض الماء فما جرى وشح المطرفما انهمر.

ولو تدبرنا القرآن وتلوناه بإمعان، لسحرمنا القلوب والألباب، بوصفه المعجز الخلاب،للماء النميرتموج قطراته وتنساب،ناعمة رخية، وينبعث منها الخريربنغماته العذاب، رقراقة ندية، و إذا روعة التصويرتصاحب دقة التعبير، و إذا عنصرالماء ينهل بين الأرض والسماء، فينبجس[٢] من الجماد والحجر، وينهمرمن السحاب والمطر، ويملأ الغديروالنهر، ويسقي النجم[٣] والشجر، ويخرج الحب والثمر، ويطلع الورد والزهر، ويحيي الدواب والبشر، وينفع البدو والحضر، و إذا الماء الدافق إكسير كل الخلائق، وينبوع كل الحقائق.

في قطرات من هذا الماء بث الله روح الحياة، من بدء الخلق إلى منتهاه.و إذا كنا لا ندري عن نهاية العالم إلا ما أخبرنا به القرآن وأكده الحديث المأثورمن أشراط الساعة ويوم القيامة والبعث والنشور، لأنه غيب لا يعلمه إلا الله، فنحن أيضًا لا ندري عن بداية العالم إلا ما أخبرنا به المعصوم وتلقاه من وحي الله،لأننا يوم بدء التكوين لم نكن حاضرين نشأة الأكوان ولا شاهدين خلق الإنسان ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[٤]. ومع ذلك حثنا القرآن على سبرالأغوار، وتقصي الأسرار، لنعرف عن طريق البحث والنظر،وطول الرحلة والسفر، وتتبع النقش والأثر، ما نستطيع معرفته عن الصورة التي كان عليها الكون أول مرة: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾[٥].

و إذا الماء غامرتلك الصورة الأولى غمرًا نحسبه غيبيًا خالصًا ولا ندرك ما فيه من دقة التعبيرالحسي عن موجود حقيقي قد كان قبل وجود الكون، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾[٦]. ولقد سأل الصحابة رسول الله عن هذه الآية فأجابهم: «كان الله ولم يكن شيء معه،أولم يكن معه شيء غيره، وكان عرشه على الماء»[٧]. ووجد

شارح العقيدة الطحاوية أن هذا الحديث يحتاج إلى التفسيروالإيضاح، فعلق بقوله: «إن في هذا الحديث إشارة إلى حاضرموجود مشهود (وهو هذا الكون المرئي)، وقد أجابهم النبي عن هذا العالم الموجود لا عن جنس المخلوقات،وقد أخبرهم عن خلق السماوات والأرض، فظهر أن مقصوده إخباره إياهم بيده السماوات والأرض وما بينهما، وهي المخلوقات في ستة أيام، لا ابتداءُ وخلقُ ما خلقه الله قبل ذلك»[٨].

وعناية القرآن بالماء، و إحاطته بهالة من التمجيد، ربما ترتدّان إلى أن عرش الرحمان كان عليه عند بدء الخلق والتكوين. ونحن نكتفي الآن بهذه الملحظة العابرة، ونبادرإلى تسليط الأضواء على بعض المراحل والأطوار، التي كان النصيب الأوفى خلالها للماء، في كل مظاهرالإحياء والإنماء، ومصادرالإنتاج والعطاء.

و إبرازًا لأهمية الماء، وتأكيدًا لتحقق وجوده قبل خلق السماوات والأرض، قد نستأنس استطرادًا بما نص عليه سفرالتكوين في العهد القديم من أن الله «في البدء خلق السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلام،وروح الله يرف على وجه الماء» [٩]، فيخيل إلينا للوهلة الأولى أن بدء الخلق في التوراة يشبه بدء الخلق في القرآن،ويفوتنا حينئذ ما في التوراة من ثنائية عنصرية لمادة الخلق الأولية Dualisme تضمنها التنصيص على مزيج من الماء والظلماء، وننسى في هذا السياق أن لفظ «الغمر» أو «العمق» The Deep الوارد في التوراة يرادف الكلمة البابلية Tiamat ويذكرنا بأسطورة البابليين والسومريين التي افترضت في البداية أيضًا وجود الماء ولكنها افترضت في الوقت نفسه أن الآلهة الخالقة ظهرت من ذلك الماء،وأن تلك الآلهة كونت الأرض من هذا الماء، وأن «مردوخ» الإله الخالق بزعمهم صنع السماوات والأرض من الدخان الصاعد من ذلك الماء[١٠].

والحق أن تصويرالقرآن لمادة الخلق الأولية يختلف عن تلك التصورات والظنون، وأن تعبيره عن قضايا الخلق خال من الأوهام والأساطير، وأن صياغته المحكمة الموجزة التي لم تدخل في الجزئيات ولم تخض في التفصايل أقرب إلى التصور العلمي الرصين الذي يتجنب افتراضات «المتلفسفين» وغيبيات «الميتافيزيقيين»

ويرفض «ميثولوجيا» الأسطوريين.

و إن هذا لواضح جدًا في مواطن كثيرة من القرآن، ولا سيما في مطلع الآية الناطقة بأن الماء هو مادة الكائنات الحية كلها، لأن نص الآية هو التالي: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[11]. ويستنبط من هذا أن الكون في بدء الخلق كان وحدة متماسكة متصلة تكثرت الموجودات عنها فيما بعد حين انفصل بعضها عن بعض بالتدريج، إذ كانت في البداية مرتوقة رتقًا، ثم «انفتق» رتقها واتصالها.

ولعلنا نستنتج من هذه «الومضة» القرآنية المعجزة أن العوالم الكونية المسماة في القرآن ﴿العالمين﴾ لم تبلغ كمالها إلا بالتدريج، على رغم تشابه مادتها الأولية، سواء أكانت«الماء» لكل الأحياء، أم «الدخان» الذي تصاعد من الماء لجميع أجرام السماء. ومن الطريف أن شارح العقيدة الطحاوية لما علق على قوله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ في فاتحة الكتاب،توقف عند كلمة «رب» ليلحظ في معناها مفهوم التربية، وهي كما قال: «تبليغ الشيء كماله بالتدريج»[12].

وعندما صرح القرآن بأن السماء كانت «دخانًا»،وأن الله «استوى إليها» أي اتجهت إرادته إلى تكوينها وخلقها،في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [13]، استنتجنا أن إفراد السماء أولا يراد به جنسها،على حين أشيرثانيًا بتعدادها «سبع سماوات إلى الأجرام السماوية كلها، ومنها ما علمنا عنه شيئًا، ومنها ما لم نعلم عنه أي شيء، وقد تكونت برمتها من الدخان ثم بلغت كمالها بالتدريج. ولا ندرك ما في التعبير «بالدخان» هنا من قيمة مادية «محضة» إلا إذا تذكرنا أن من الافتراضات العلمية التي ما تزال وجيهة «أنه في أول تاريخ مجرتنا كانت هناك سحابة من غبارذي تركيب كوني يشبه السديم»[14].

وهذه الصياغة المادية لعناصرالتكوين الأولية توشك أن تكون علمية «بحتة» إذا أصطلحنا اصطلاحًا على «فرزها» و إفرادها عما يخالطها من التعابيرالدينية

«الخالصة». ويرتفع وزنها العلمي ارتفاعًا ملحوظًا إذا تابعنا أبحاث العلماء المعاصرين الذين انتهوا في هذا المجال «إلى أن الكواكب الابتدائية قد تحوّلت إلى كواكب عادية منذ حوالي ٥٠٠٠ مليون سنة، وأن الفصل الكيميائي بين أجرام الكواكب قد تمّ منذ ٤٥٠٠ مليون سنة، وأن القشرة الخارجية للأرض قد تكوّنت بصورة كاملة منذ ٤٠٠٠ مليون سنة، وأن أقدم أثرللحياة قد ظهرعلى وجه الأرض منذ ٣٠٠٠ مليون سنة» [١٥].

والأرقام المذكورة في أبحاث العلماء ودراساتهم لا تعنينا في كثيرولا قليل عندما تؤخذ لذاتها، وتُقبل بِعُجَرها وبُجَرها. و إنما أشرنا إليها استئناسًا واستطرادًا، لنكشف عن مدى التقارب بين منهج البحث العلمي وصيغة الوصف القرآني لأولية عنصرالماء في تكوين الأحياء، وأولية عنصرالدخان «المتبخّرمن الماء» في تكوين أجرام السماء.

والنظرة العلمية إلى الماء في التصورالإسلامي لم تنحصرفي مادته الأولية للخلق والتكوين، بل تناولته لذاته متفجرًا من الحجارة والصخور: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُمِنْهُ الأَنْهَارُوَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء﴾[١٦]، ووصفته لذاته كيف يهطل مدرارًا من السحاب الذي تثيره الرياح: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء[١٧]،﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا﴾[١٨]، ﴿اللّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُسَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاء وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ﴾[١٩]، ﴿أَلَمْ تَرَأَنَّ اللّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاء وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاء يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾[٢٠].

ومن الواضح في هذه الآيات أن استمرارالماء في التفجروالجريان والانهمار، في العيون والآبار، والينابيع والأنهار، والسيول والأمطار، يرتبط بالظواهرالطبيعية، ويفسر بالعلل الحقيقية لا الوهمية، كتراكم السحب واحتكاكها، وانطلاق الرياح وهبوبها، وقيظ الشمس وحرارتها، وتصاعد البخارمن مياه البحار.

إن طولَ أُلفتنا للماء ينزل من السماء،وينبع من العيون، ويجري في الأنهار،

ويصب في البحار، ويسقي النبات، ويخرج الثمار، ونشربه كلما كنا ظماء، ونحيي به الموات، ونضمن به مستقبل الغذاء، وننمي به وسائل الإنتاج، ونضاعف به أشكال التضيع والازدهار، إنّ طول أُلفتنا له في جميع هذه الأحوال لا يسمح لأكثرنا بالكشف عن كنهه وحقيقته، ومعرفة الظواهرالطبيعية التي أدّت إلى وجوده، واستمراره، وتوافره في الكون الذي نعيش فيه.ولكي ينقذنا القرآن من هذه الغفلة، وصف لنا كيف أسكن الله الماء في الأرض، وكيف سلكه في ينابيعها، وكيف فجره فيها عيونًا،وكيف أنزله بقدرمعلوم وقدر كمياته تقديرًا في الأودية والغدران: ﴿أَلَمْ تَرَأَنَّ اللّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾[٢١]. ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونً﴾[٢٢]، ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [٢٣]. ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾[٢٤].

ولم يكن بد من اقتران هذا الوصف العلمي الدقيقي لتكون الماء واستمرار جريانه،ببعض المعاني الدينية الخالصة التي تذكربالخالق المنعم على خلقه بإنزال الماء تارة، وتُعرِض على الكائنات في الماء من منافع لا تنقطع ولا تُحصى تارة ثانية، وتحذرهم من غيض الماء والجفاف العام تارة ثالثة أخرى.

ومع أن العرب المتتبعين لمساقط الغيث، والخائفين من الجدب والعطش، كانوا على وثنيتهم وشركهم يؤمنون بأن الله هو المغيث الذي ينزل الماء، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللّهُ﴾[٢٥]. ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ، أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾[٢٦].

وحين يلزم البشرالصمت جحودًا لفضل الله ونعمائه، يسرد لهم ربهم ما أودعه من المنافع وبثه في مائه. وهنا تتراءى في آيات القرآن يد حانية لطيفة تدبرللأحياء، ليس في عالم الإنسان وحده بل في عالم الحيوان أيضًا، طعامهم الذي يقيم أودهم، ويحفظ صحتهم،فتصبّ عليهم ماء السحاب صبًا،وتمضي به إلى التربة الخصبة لينفذ فيها ويشقّها شقّا ويعين النبات على النماء والانبثاق من التراب،

والامتداد في الهواء. و إذا النبات يستحيل حيًا يُقضم، وعنبًا يُعصر، أو فاكهة تؤكل غضة طرية، أو زيتونًا ينبت بالدهن،أو نخلًا باسقات، و إذا الحدائق التي ينبت فيها هذا النبات ملتفة الأشجار، متشابكة الأغصان ،فيها من الثمرات ما يتفكه به الإنسان، ومن المرعى ما يسد حاجة الحيوان: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ، أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا، فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا، وَعِنَبًا وَقَضْبًا، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا، وَحَدَائِقَ غُلْبًا، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا، مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[٢٧].

وعندما يفتح الله أبواب السماء بماء منهمر، كما أخبرنا في سياق قصة نوح وقومه من سورة القمر[٢٨]،خليق بنا ألا نكتفي بتلاوة الآية مسحورين بما يسري في ألفاظها من بديع النغم وناعم الظل ورائع الخيال، بل لابد لنا من استكناه ما ينطوي في غضونها من مصادر الطاقة المتعددة التي تنهمر بالماء، أو ينهمر بها علينا الماء، كلما تفتحت أبواب السماء. وحينئذ تتفتح قلوبنا لاستيعاب تلك المصادر، والاستزادة منها، والاقتصاد في استعمالها، والاستعداد لتقبُّل الشركة فيها،ما دمنا نعلم أن الله هو الذي أشْرَع لنا أبوابها، ونبأنا على ألسنة رسله أنها قسمة بيننا، لا يحتكرها فريق منا دون فريق، ولا الغني دون الفقير، ولا البرّ دون الفاجر،ولا المؤمن دون الكافر،مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [٢٩].

وما توحي به هذه الآية من مفهوم «التشارك» العام في اقتسام المياه، نجد في حديث النبي ترجمتَه العملية وشرحه المفصل عندما يضفي طابع الوظيفة الاجتماعية على ملكية بعض الأشياء، وأهمها ثلاثة، وأولها الماء «الناس شركاء في ثلاث: الماء،والكلأ والنار»[٣٠]. و إذا كان معنى الشركة في الماء (أول تلك الأصناف الثلاثة) قد انحصر في نطاق البيئة العربية على عهد الرسول صلوات الله عليه وسلامه، فلا ريب في أن دلالته بدأت تنبسط وتمتد وتتسع في مجتمعنا العصري، حتى باتت تشمل كل الموارد والمواد والطاقات الأساسية الضرورية لحياة الجماعة ونمائها وازدهارها: ففي لفظ الماء وحده تدخل كل الموارد المائية سواء أكانت للشرب أم للاستعمال أم للسقي والري الزراعي عن طريق ما يسمى

«بالزراعة الهوائية» [٣١]. التي تستفيد من آخر قطرة من المياه في عمليات ري المحصولات والغلال، أم لتوليد الطاقة الكهربائية، أم لزيادة الإنتاج الصناعي عن طريق الشلالات الهادرة الآتية، أم لإحداث تغييرات «بيولوجية» في عمليات «التهجين» لبعض الكائنات الحية، أم لمزج السوائل المائية ببعض العناصر الكيميائية استصلاحًا لبناء التربة «الميكانيكي»،أو استخراجًا لأدوية وعقاقير طبية، أو استحصالا على بروتينات غذائية، أو تفجيرًا لكوامن الطاقة البشرية في عمليات التحويل «الفيزيولوجي» [٣٢].

وهذا الشعور المزدوج «بمسوؤلية» الإنسان عن الماء وتنمية مصادره والاحتراس من التفريط بشيء منه،ووجوب «قسمته» بين جميع البشر قسمة مشتركة عادلة لمضاعفة الازدهار الحضاري، نزداد اقتناعًا به و إدراكًا لأهميته إذا قرأنا بإمعان ما ورد بشأنه في الكتاب والسنة، وفي تعليقات المفسرين والمحدثين والفقهاء.

إن كتاب الله لا ينى يعرض علينا صورًا شاخصة عن إحياء موات الأرض، وموات المدن والبلدان، ويكاد يدخل في نطاقها إحياء ما أشرف على الموت أو وهنت قواه عن مجابهة الحياة من الحيوان والإنسان.

حتى الأرض البور«الجرز» كما يصفها القرآن، يسوق الله إليها الماء، لإحيائها بعد موتها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ [٣٣]، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[٣٤]، ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[٣٥].

وعن ري الأراضي الزراعية ونتائجها الطيبة نقرأ نظائر هذه الآيات: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [٣٦]. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ [٣٧]. ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٣٨]. ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [٣٩].

وبصورة أكثر تفصيلا يبرز لنا القرآن الكريم نتائج الري الزراعي في كثرة أنواع

الشراب تارة، وفي تنوع صنوف الشجر، واختلاف ألوان الثمر، وخصب المراعي وخضرة الحقول تارة أخرى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾[٤٠]. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[٤١]. ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا﴾[٤٢]. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾[٤٣].

و إن في إحياء الأرض لإحياء للمدن والبلاد، وتعزيزًا للحضارة والعمران: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء﴾[٤٤]. ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾[٤٥]. ولم تكن الغاية الأساسية من تكاثربركات الماء وخيراته إلا إسعاد البشر و إصلاح معاشهم ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[٤٦]

و إنما كان هذا كله لمصلحة الإنسان،لأنه أول كائن حي خلق من ماء: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾[٤٧]، ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾[٤٨]، ﴿وَاللّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء﴾[٤٩]. ولم يدخل هذا الكائن المكرم في منطوق الآية الأخيرة إلا لأنه أول مخلوق من الماء دبّ على وجه الأرض: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾[٥٠]. ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾[٥١]. ولم يكن الماء الذي خُلق منه الإنسان مهينًا إلا لأنه اختلط بالتراب فصار صلصالًا وطينًا،وحمأ مسنونًا، فلم يكن ذكرأصله حِطّة بالماء لذاته، ولا حِطّة بالإنسان خليفة الله في أرضه، بل كان ذلك ليعرف هذا الكائن الممتاز قيمة الماء الذي نشأ من سلالته،وليسخره لمصلحته وينمي به حياتَه وحياة بَني جنسه ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[٥٢].

من هنا كانت دعوة الرسول المستمرة إلى إحياء الموات، وتحريك الجماد، وتكوين الدوافع لمواصلة الإنتاج ومضاعفته: «من أحيا أرضًا ميتة فهي له»[٥٣]، «من كانت له أرض فليزرعها، فإن لم يستطع وعجزعنها فليمنحها أخاه المسلم، ولا يؤجّره إياه»[٥٤]. وتأكيدًا لرغبته في إحياء الموات بكل الوسائل الممكنة، قال صلوات الله عليه وسلامه: «عاديُّ الأرض لله ولرسوله، ثم لكم من بعد، فمن أحيا

أرضًا ميتة فهي له، وليس لمحتجزحق بعد ثلاث سنين» [٥٥].وهكذا جعل عليه الصلاة والسلام مدة السنين الثلاث ميقاتًا كافيًا لاستبانة القدرة على الإحياء لدى من وضع يده على الأرض الموات.

إن تحريك الحوافزالنفسية لمواصلة الإنتاج والعطاء، عن طريق إحياء الموات، والاستزادة من مصادرالمياه، تزداد أهميته وترتفع قيمته إذا ألقينا نظرة على ما ابتدعه إنسان القرن العشرين من الأنماط والوسائل «التقنية» الحديثة في الحقول التجريبية ومختبرات البحوث، حتى استطاع أن يحول منطقة السهوب الآسيوية في سيبيريا إلى مناطق مزدهرة للإنتاج الزراعي والصناعي بعد أن كانت مسرحًا لتسابق قطعان الرعاة، كما استطاع ان يجعل منطقة شلالات نياغارا Niagara في كندا والولايات المتحدة من بين أعم المناطق الصناعية في العالم كله، بعد أن كان الهنود الحمريولون الأدبار، فزعًا من هديرمائها المتساقط باستمرار[٥٦]...

إن الموقف الإسلامي إزاء هذا كله لا ينحصرفي تشجيع الإنسان على الاستزادة من الموارد الطبيعية، وفي رأسها مصادرالمياه، فذلك أمربديهي في ضوء النصوص التي ذكرناها وعلقنا عليها.بل نجد في الموقف الإسلامي اهتمامًا بشأن الماء لا يعدله اهتمام. إنه يؤكد أن الماء قسمة بين جميع البشر، ويحذر البشرمن احتكاره، أو تلويثه، أو التفريط فيه، وينذرهم خطرًا كبيرًا وشرًا مستطيرًا إن غاض ماؤهم وأصبح غورًا، فماذا يفعلون؟ ومن يأتيهم بمادة الحياة والإنماء والإنتاج: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ﴾ ؟ [٥٧].

إنه السؤال الكبيرالذي لا يفكربه الإنسان الحديث، لأنه حتى الآن ما يزال يجد الماء الغزير، ولأنه حتى الآن أيضًا لا يصدق أنه قد ينتهي إلى ذاك المصير الرهيب، في أمد قريب: ﴿وَ إِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [٥٨].

أما نحن فسوف نظل تقرع ناقوس الخطر، خوفًا على مستقبل الماء، وعلى مستقبل الغذاء، وعلى مستقبل هذا الكائن الممتازالذي خلقه الله من سلالة من ماء وفضله على الخلائق أجمعين.

الهوامش:

١ ـ الأنبياء/ ٣٠.
٢ ـ ينبجس: ينفجر وينبثق.
٣ ـ النجم: النبات الذي لا ساق له، سمي بذلك لأنه ينجم من الأرض نجومًا.
ومنه قوله تعالى في سورة الرحمان: "والنجم والشجر يسجدان".
٤ ـ الكهف/ ٥١.
٥ ـ العنكبوت/ ٢٠.
٦ ـ هود/ ٧.
٧ ـ صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق.
٨ ـ شرح العقيدة الطحاوية، ص ٦٦.
٩ ـ سفر التكوين، الفصل الأول، الآيات ١ - ٣.
١٠ ـ Aleunder Heidel, The Babylonian Genis Chicgo, 1942,p. 78 J.Bpntctard, Ancent Neat Eantenrn.
١١ ـ الأنبياء/ ٣٠.
١٢ ـ شرح العقيدة الطحاوية، ص ٦٨
١٣- فصلت/ ١١- ١٢
١٤- زغلول النجار في محاضرته العلمية القيمة «محاولات الإنسان لتقدير عمر الأرض» ص ٥٠٢ (من محاضرات الموسم الثقافي لجامعة الكويت، سنة ١٩٦٨ - ١٩٦٩.
١٥- المحاضرة «النجار» نفسها، ص ٥٠٣.
١٦- البقرة/ ٧٤.
١٧- الحجر/ ٢٢.
١٨ - النبأ/ ١٤.
١٩- الودق: المطر.
٢٠- النور/ ٤٣.
٢١- الزمر/ ٢١.
٢٢- القمر/ ١٢.
٢٣- الرعد/ ١٧.
٢٤- المؤمنون/ ١٨.
٢٥- العنكبوت/ ٦٣.
٢٦- الواقعة / ٦٨ - ٦٩.
٢٧- - عبس/ ٢٤ - ٣٢.
٢٨- القمر/ ١١ ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ﴾.
٢٩- القمر/ ٢٨.
٣٠- راجع ما ذكره السباعي عن إسناد هذا الحديث في «اشتراكية الإسلام» ص ٣٦.

٣١- وهذا ما يسمى في اصطلاح الهندسة الزراعية، Hydroponics.
٣٢- راجع في مجلة «عالم الفكر» الصدرة في الكويت،في العدد الثقاني لسنة ١٩٧٠، بحث الدكتور حسن طه النجم «مستقبل التغذية في العالم» ولا سيما ص ١٢١.
٣٣- السجدة/٢٧.
٣٤- الروم/ ٢٤.
٣٥- الحج/ ٥.
٣٦- الرعد/ ٤.
٣٧- طه/ ٥٣.
٣٨- الأنعام/ ٩٩.
٣٩- ق/ ٩.
٤٠- النحل/ ١٠.
٤١- الحج/ ٦٣.
٤٢- النازعات/ ٣٠ -٣١.
٤٣- فاطر/ ٢٧.
٤٤- الأعراف/ ٥٧.
٤٥- الزخرف/ ١٣.
٤٦- ق/ ١١.
٤٧- الفرقان/ ٥٤.
٤٨- الطارق/ ٦ - ٩.
٤٩- النور/ ٤٥.
٥٠- المرسلات/ ٢٠.
٥١- السجدة/ ٨.
٥٢- الجاثية/ ١٣.
٥٣- قارن خراج أبي يوسف ٩٦ –٩٨. بخراج بحي بن آدم، والحديث على كل حال مروي في الصحيحين.
٥٤- انظرتهذيب ابن القيم لسنن أبي داوود ٥٦/٥ - ٥٧.
٥٥- خراج أبي يوسف، عن ليث عن طاووس.
٥٦- مستقبل التغذية في العالم (بحث الدكتورحسن طه النجم) ص ١٢٠.
٥٧- الملك/ ٣٠.
٥٨- الزمر/ ٢١.